مواجهات في الكتب

الدكتور يوسف سدان : الأدب العربي الهازل ونوادر الثقلاء ،
الناشر : جامعة تل أبيب ، مكتبة ومطبعة السروجي ـ عكا ، ١٩٨٣، ١٥٠ صفحة .

يقوم الدكتور سدان في كتابه هذا بدراسة علمية رائدة لكيمياء الأدب العربي الهازل ، مشرفا على هذا اللون من بعد يطلّ على مجموعات كبيرة من آثاره ، تتجاوز الكتب المطبوعة الى ما يقارب سبعين كتابا مخطوطا سعى اليها المؤلف في مكاتب أوروبا وأميركا ومصر ، ومنها ما روجعت مخطوطته على أكثر من نسخة في عدد من المكاتب .

وتتعامل هذه الدراسة مع الأدب العربي الهازل على صعيدين : الأول ـ البعد الأخلاقي ـ الاجتماعي ، باعتبار الأدب بنية ـ فوقية ينعكس فيها النسيج المادي للبنية ـ التحتية للمجتمع تبعا لاختلاف الظروف والتيارات ومقاييس التطور . أما الصعيد الثاني ـ فهو دراسة النسيج الجمالي والاخراج الأدبي في صياغة هذا الأدب .

وهكذا فان البحث يسلّط أشعة التحليل على جسد الحبكة الأدبية الهزلية ، فيرصد الهيكل العظمي الاجتماعي ، ويتفحصه ، ويرى التفاعل ما بين المعايير الاجتماعية والخلقية في مرحلة معينة وبين صيغة الأدب الهازل آنذاك . ولهذه العملية أهميتها لأن الهزل يختلف باختلاف المستوى الحضاري للمجتمع ، لاختلاف القيم والاعتبارات . كما أن مفهوم الهزل يختلف في كثير من المجتمعات تبعا لذلك ، فالذي يضحك منه الطفل قد لا يضحك منه البالغ ، وما يضحك منه البالغ البدائي قد لا يضحك منه البالغ المثقف في مجتمع آخر .

يحدد الدكتور سدان طرفين للهزل هما : "الفطري" ، و "المتطور الثقافي" ، وهما ليسا "الا قطبين تقوم بينهما ألوان ومراتب .. أما تقييمنا لهذه الألوان فقد يتأثر ، في بعض الأحيان ، بمواضعات اجتماعية أخلاقية ، أو مفاهيم تسيطر على أذهان أفراد المجتمع في تقييمهم متى يباح الضحك ومتى يمنع" (ص ١٠) .

ومن هنا كان الفصل الأول من الكتاب يبحث في "حدود الهزل بين الفطري والمتطور" ، ويتحدث عن العيوب الانسانية كموضوع للهزل الفطري ، وكيف يتطور الأدب الهزلي مطعّما بالاثار الثقافية والعلمية ، ويدخله التنميق الأسلوبي ، ويمر "بمراحل التلطيف والتهذيب ويصل الى قمة التطور" .

ويعالج القضايا التي تثير الضحك ، مشيرا الى "نسبيّة الهزل" . فالضحك نسبي يتوقف على الذوق الفردي والذوق الاجتماعي في عهد معيّن . ومن هنا كانت أهمية اعتبار القرائن الزمنية والاجتماعية لنصوص الأدب الهازل . ويقدّم نماذج من الأدب العربي الهازل القديم مما تمجّه أذواقنا اليوم لأنه يسلط السخرية على العاهات الجسمية كالعمى وسواه مما يتنافى مع قيمنا اليوم ـ فمثل تلك العاهات يستثير فينا الشفقة والعطف ، لا الهزل والضحك .

ويرى المؤلف أن اتخاذ العاهات موضوعا للهزل ظل الى مرحلة الهزل ما بعد الفطري ، مجتازا نوعين من "التلطيف" ـ "اما بواسطة رفع النصوص الهزلية الى مستوى أسلوبي أعلى ، كما سيتبيّن لنا من خلال نوادر الثقلاء فيما بعد ، او بواسطة التهذيب الأخلاقي . والى هذا النوع الثاني ينتمي خلق التوازن عن طريق ادخال بعض الفقرات التي تدافع عن الناس الذين هم موضوع الضحك" (ص ١٤) .

وتلتفت الدراسة من ناحية أخرى الى "طبقية" الهزل ، في السخر من ذوي العاهات السلوكية المنافية لآداب "الجو السائد في القصور العباسية ومنازل الطبقات العليا المهذبة والتي كان ينتمي أفرادها الى مستهلكي الأدب والى المولعين بآداب السلوك والأناقة والعادات الفارسية ، وهي آداب تصعب مراعاتها أصلا ... ان التناقض بين التصرف اللائق والأعمال الشاذة هو الذي يولّد الضحك لدى السامع والقارئ" (ص ١٨ ـ ١٩) .

وتشير الدراسة الى المزاح الفاحش والبذاءة ، اذ ان هذا اللون منتشر في كثير من كتب الأدب المعتبرة ، حيث يتداخل مع أبواب أخرى . ولم يكن المثقفون آنذاك يتحرجون من هذا اللون . كما ان هناك كتبا يغلب عليها الهزل البذيء . ويؤكد الدكتور سدان "انه من الصعوبة بمكان أن نرى في النصوص البذيئة في أدب القرون الوسطى أدبا ينتمي كليا الى ما يسميه الباحثون بأدب "ما وراء الرسمي" ، وذلك لاندماج المادة البذيئة بالمادة المهذبة و"التوازن" بينهما ضمن مجموعات الأدب ..." (ص ٢١) .

وتحتل نظرية التوازن موقعا هاما في هذا البحث، والمراد بذلك وجود توازن بين التافه والرزين في الأدب، بين الجد والهزل، وبين "الخشن" البذيء من ناحية والعلمي ـ الأدبي المهذّب من ناحية أخرى ·

فـالمؤلف يرى أن ثمة نسيجا دقيقا من هذه العناصر في كتـب الأدب (والمقصود بهذا التعبير : "النوع الأدبي المتعدد الفروع والذي دعي في القرون الوسطى باسم أدب" (ص ٢٤)، ويرصد هذا التوازن على المستويات التالية :

١ . مستوى الكتاب، سواء كان ذلك الكتاب من المجموعات "اللامنهجية" ـ كما في كتب الجاحظ وأبي حيان التوحيدي والحصري، وهي التي لم تصنّف حسب فصول وأبواب مرتّبة، أو في المجموعات "المنهجيّة" التي صنّفت باعتبار كل موضوع في بابه ـ كما في كتب ابن قتيبة وابن عبد ربّـه وغيرهما ·

ويتوصل الى النتيجة ان هذا التوازن بين الجد والهزل واضح في المجموعات "اللامنهجية"، فاذا وردت معلومات نظرية علمية ومواد جدّية في نصّ ما، فسرعان ما تعقبها المواد الخفيفة مثل بعض الفقرات والكلمات "الشاذة" ليتم التوازن · فهذا التوازن كان يتجاوب مع الذوق الأدبي والحاسة "الجمالية"" (ص ٢٩) ·

ويمضي لاثبات نظرية التوازن في المجموعات "المبوّبة المنسقة حيث تأتي المواد الهزلية كل على حدة" [الصفحات ٣١ ـ ٣٦] ·

ب . مستوى الفصل في الكتاب : حيث يلاحظ "ادخال بعض العناصر الجدية كالمدافعة عن الأشخاص الذين تتهكم عليهم النوادر، وذلك ضمن نفس الفصل" (راجع الجدول ص ٣٦) ·

جـ . مستوى الفقرة أو الجملة : أي في أصغر وحدة أسلوبية، حيث يجد أنه "كلما ارتقى الأسلوب الى الصيغة الجدية اضطر المؤلف أن يلجأ الى الأخذ من المواد الفجة بنفس المقدار" ·

ويعمد المؤلف الى دعم نظريته هذه بفيض من الشواهد من المراجع المختلفة الكثيرة التي تغصّ بها الهوامش ·

*

أما الفصل الثاني من الكتاب، وعنوانه "الضحك والمضحكون وبيئتهـم الاجتماعية" ففيه تحليل اجتماعي للبيئـة التي نشأ فيها الضحك والمضحكون والأدب الهازل ·

وانطلاقا من أن "الظرفاء" والمثقفين من مستهلكي الأدب العربي" كانوا غالبا من الأثرياء، وباعتبار أن المشاكل التي يعاني منها هؤلاء ـ من أهل القصور وحاشيتهم ومن دار في فلكهم ـ تنحصر في أمرين : ١) الضجر ٢) مكابرة "آداب السلوك" الصعبة، فقد وجدوا ترويحا في خروج بعضهم متنكرين الى البيئات الشعبية، أو بطرح التكلف، ورواية النوادر والملح، والاستماع الى المضحكين والمهرجين ـ على اختلاف أصنافهم .

وشيئا فشيئا انتقلت مهمّة الاضحاك من التلقائية الى الصنعة، وظهر "المضحك" الذي ورثته الحضارات العربية الاسلامية عن الحضارات التي سبقتها او بعثته بمظهر جديد" (ص ٤١) . ويلتفت المؤلف الى ميزانية البلاط، وما رصد فيها من مخصصات للمضحكين على اختلاف أنواعهم (كميزانية قصر المتوكل ـ في كتاب القاضي ابن الزبير الذخائر والتحف، وغيرها من الميزانيات في المصادر الأخرى التي أسهبت الاشارات اليها في الصفحات ٤١ وما بعدها) .

ومن خلال هذه الدراسة البيئية للأدب، يرسم لنا المحاور الاجتماعية التي نشأت حولها النوادر ومطاعن السخرية، فاذا بها تتمثل فيما يلي :

١ . صراع البداوة والحضارة، فهناك : البدوي الغبي الساذج في مواجهة الحضري العاقل الذكي، وعكس ذلك : البدوي الذكي العاقل حيال الحضري الغبي المتكلف، وتتجاوز هاتان الدائرتان حدود الصراع الحضاري الاجتماعي الى ميدان الصراع السياسي مع الشعوبية التي كانت تشجع نوادر المحور الأول، بينما كان معارضوها يشجعون نوادر المحور الثاني الذي يرفع من شأن البداوة، والعرب، ويروّجون لذلك .

ب . صراع القروي والمدني : ويتمثل هذا المحور أيضا في دائرتين ـ الأولى : القروي المتميّز بالفطنة رغم سذاجته ـ في مواجهة المدني القليل الذكاء وان كانت هذبته رفاهية الحياة . والثانية : القروي الغبيّ وان كان متوسط الحال ـ في مواجهة المدني العاقل، وان كان فقيرا .

ويفرد المؤلف بابا خاصا لموضوع "التحفظ الأخلاقي ـ الديني من المزاح ومن "كذبه" في كتب الأدب"، اذ ان ايضاح الجانب الأخلاقي ـ الديني لقضية المزاح يلقي ضوءا على الجانب الأدبي . فاعتمادا على القول ان رسول الله "كان يمزح ولا يقول الا حقاً"، يرسم المؤلفون لأنفسهم مسارا لاستخدام أساليب الخيال

والمبالغة "بشرط ألا يجتاز الحد الفاصل بين الحقيقة والكذب المستنكر أخلاقيا . وبذلك يردّون مسبقا على كل معترض ينفر من الأدب المبتكر لكونه ,لا أخلاقيا' " (ص ٥٩) .

واذا كان "الكذب الأدبي" ـ وهو الذي يضفي أبعادا من الخيال على التعبير ، ويخرج به من الحقيقة الى المجاز ، قد اعترف به على الصعيدين الخلقي والديني (أعذب الشعر أكذبه) وحظي بموقف ايجابي ، فان ظاهرة "الكذب" في الهزل حظيت بموقف متردّد . ويرى المؤلف أننا "حيال ظاهرة تستدعي الاهتمام" ، خاصة وان الموقف من "الكذب" في الهزل "قد نشأ منشأ أصيلا دون أدنى تأثير أجنبي يونانيا كان أو غير يوناني" (ص ٦٢) .

*

وينفرد الفصل الثاني من الكتاب بنوادر الثقلاء ، وكيفية نمو هذا النوع الأدبي المتطور . ويكاد هذا الفصل ـ بملاحقه ـ يحتل نصف الكتاب .

ويختلف المزاح هنا بأنه يقوم على تقصّي الهفوات الأخلاقية للانسان ، ولا يسلط سهامه الى العيوب الجسدية ، ولذلك فهو أكثر قبولا . ويتشابه الميدان الذي يجري فيه التندّر من الثقلاء بميدان التندّر من البخلاء .

ويقف المؤلف وقفة متأنيـة ليبحث في "المبالغة كأحد عناصر الهزل" ملاحظا أنه يصعب تقصي المبالغة في جميع أنواع النوادر ، خاصة نوادر الثقلاء والبخلاء (اذا قورن الأمر بنوادر الأكلة ومن شابههم) . ويلتفت التفاتة أصيلة الى محور التندر من البخلاء عند الجاحظ ، فمع أن الجاحظ لم يكن يسلك في حياته اليومية بموجب قيم الجود والانفاق التي مجّدها البدوي لاكتساب السمعة الطيبة ، الا أنه في خلقه الأدبي يعتبر تلك القيم ويحترمها ، ويستند اليها في هذا الفرع من فروع الأدب : نوادر البخلاء ، ويهاجم بعض أفراد مجتمعه الحضري ، "وربما لا يحمل عليهم لأنهم لا يخضعون الى هذه القيم البدوية وانما لاستهزائهم بها وتفضيلهم القيم الحضرية ذات الأصل الفارسي . والجاحظ يتخذ هذا الموقف ليردّ على مظاهر "الشعوبية" وليظهر أنه ، في حياته الروحية الأدبية ، لم يزل يؤثر التراث العربي العريق ، بكل ما فيه من أخلاق ومفاهيم ، على التراث الفارسي الحضري الذي اعتمده ابن المقفع مثلا في حديثه عن البخل والجود..." (ص٧٧ ـ ٧٨) .

وبالعودة الى نوادر الثقلاء ـ يؤكد الدكتور سدان "ان روح الهزل فيها

لا تنبع في أغلب الاحيان من تضارب القيم العربية العريقة الجاهلية وتناقضها مع القيم الحضارية الفارسية، وانما تنجم عن تناقض آخر . فمجالس أهل الأدب والظرف تخضع لقيود صارمة، سواء في التصرف أو في تبادل أطراف الحديث، وهي قيود استقتها بيئة القصور ومنازل الاثرياء العباسيين من التراث الفارسي، فكل خروج عن تلك القيود يؤدي الى المفارقة وبالتالي الى الضحك ..." (ص٧٩).

وباعتبار أن نوادر الثقلاء بلغت صياغتها الفنية "قمة التطور الأدبي"، يمضي المؤلف ليبحث في القيمة الجمالية لهذا اللون . ويخلص الى القول : "اما تركيب نوادر الثقلاء ونوعية مادتها الأدبية فانهما لا يختلفان عما هو مألوف في الأدب العربي عامة : فثمة نصوص هزلية الى جانب زخارف نثرية، تتخللها بين الفينة والفينة مقطوعات شعرية ساخرة تتبعها مواد صيغت بأسلوب مأخوذ من أساليب الكتابة الدينية كالتفسير والحديث، وذلك في اطار يندمج فيه الجد بالهزل" (ص ٨١) .

وللكشف عن ثراء الأسلوب الذي صيغت به نوادر الثقلاء ينظر في "ماهية التشبيهات التي اعتمدها مبتدعو هذه النوادر عند وصفهم الثقيل"، ويبحث عن العوالم التي استمدت منها تلك التشبيهات، فيقدم لنا جدولا مفصلا للأوصاف، والمجالات التي اتخذت منها [مقابل صفحة ٨٤] .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى دراسة لمجموعات نوادر الثقلاء، ومؤلفيها الذين منهم من عرف بتبحره في علوم الدين مثل جلال الدين السيوطي، والشخصيات التي ذكرت في تلك النوادر ومنها من عرف بعلمه كالاعمش والشعبي، بينما تعتبر بعض النصوص الامام أبا حنيفة من الثقلاء وتبرئه نصوص أخرى من تلك الصفة .

ويشير الى أن أول من أفرد لموضوع الثقلاء كتابا خاصا هو أبو بكر محمد ابن خلف بن المرزبان، المتوفى عام ٣٠٩ هـ/٩٢١ م، "وهو صاحب "كتاب الثقلاء" وكان له ميل طبيعي الى جمع المواد الأدبية التي يشوبها الهزل" (ص ٩١) . ويتوقف عند هذا الكتاب، ويقدم جدولا يختصر فيه بعض النصوص التي وردت عند ابن المرزبان، واعتمد المؤلف عليها في نشر سائر الفصول الأخرى في الكتاب عن نوادر الثقلاء .

ويفرد بابا خاصا لجلال الدين السيوطي ورسالته اتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء،

موردا نصّا محقّقا على ست مخطوطات للكتاب ، ويتبع ذلك بـ "فصل عن الثقلاء للميلوي من القرن السابع عشر" من كتاب رحلة الغريب محققا على مخطوطتين . وينتهي الكتاب بملاحق فيها فصول عن الثقلاء :ـ من كتاب بهجه السرور في غرائر المنظوم والمنثور لمحمد بن أحمد بن علي المعري الشافعي ، و"فصل لمؤلف أندلسي من القرن الرابع عشر الميلادي" ، وفصل آخر من كتاب نزهة الأخيار في محاسن الأخبار لمؤلف مجهول ، وآخر من القمر الطالع لعبد الكريم بن كمال الدين الأنصاري الخزرجي ، ثم من نزهة الأدباء وسلوة الغرباء لمؤلف مجهول ، وملحق أخير من بغية الجليس والمسامر لشهاب الدين الحفناوي البساري ـ وكلها مخطوطات ، تنشر النصوص منها لأول مرة ، وقد توخى المؤلف من الحاقها علاوة على الاستمتاع بالنص ـ عرض مستويات أسلوبية مختلفة ، وكيفية تبدّل شخصيات النوادر وروايتها مع مرور الزمن ، و"اظهار استمرارية الانتاج حتى القرن الثامن عشر في طرائف متنوعة (الأدب الراقي وزخارفه ، الى جانب الأدب الشعبي ...)" .

*

وبعد ، فانه لمن العسير الاحاطة بكل ما يقدّمه لنا هذا الكتاب من الآراء والمواقف في مثل هذا العرض ، لأن أسلوب الدكتور سدان علمي مكثف وشديد الايجاز ، وهو ممتع بعرضه المنطقي ، مدهش بالثروة الكبيرة من المراجع والاشارات التي يوردها ، ولا شك أن للدكتور سدان ، علاوة على أصالة البحث والنتائج التي توصل اليها ، فضلا كبيرا آخر هو في هذه الريادة في حشد مثل هذا العدد الضخم من الآثار والمراجع التي تعامل معها تعاملا علميا موثقا ، مما يتيح للدارسين ينبوعا من المصادر المفصلة الهامّة .

حنا أبو حنا